الأزمات الفكرية حقيقتها وأسبابها

عبد العزيز بنعبد الله

انتظم لقاء بالرباط فى شهر نونبر 1981 ، باشراف اكاديمية المملكة المغربية ، لدراسة موضوع الازمات الفكرية والروحية شاركت فيه شخصيات عالمية وقد اسهم بالنيابة عن اكاديمية المملكة المغربية اعلام من جملتهم الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله .

ان العالم يتطور — ضمن علاقات موصولة بين شعوبه — فى مسار متحرك تتفاعل فيه مؤثرات تمس اشد النبرات حساسية فى المجتمع المعاصر .

ان الانسانية عرضة لتقلبات تنبثق عن مشاكل جديدة وبالاخص عن نظريات متجددة حول مناهج الحياة وبعض مجالات الحضارة .

وهكذا يخضع رجل القرن العشرين لمؤشرات تكيفها وتعللها مجموعة من العوامل ابرزها شعور بالشخصية او حس بالذات ادى الى تفجير طاقات تولد عنها ما يسمى بالعالم الثالث .

انها هوية لم تتمخض فقط عن رغبة ملحة فى التحرر من نير كتلتين تحركهما باستمرار قوتان عظميان بل ان تفتق هذه الهوية استمد مفهومه من شعور عارم بالغبن والابتزاز تولد هو الآخر عن تصرفات استعمار جديد مقنع لا يزال يحن الى ما تميز به وامتاز ضمن قرون مضت ، فالمجاذبات التى نعيشها اليوم بين الشمال الجنوب ليست سوى مظاهر تبلور انقسام العالم الى معسكرين يوصم احدهما بالتخلف والعجز الذاتى وعدم الكفاية الفكرية بحيث تظل المؤثرات والفوارق المادية فى العمق المعيار الوحيد للتقدير والتقييم .

ان فكرة تبعية الشعوب بعضها لبعض فكرة رائعة لانها تنبثق من اعماق الفكر الانسانى الفطرى غير انها استعملت فى مسار وحيد الاتجاه يخضع فيه الاضعف للاقوى ويسخر فيه الاشد فقرا للاكثر ثراء وغنى بحيث نرى موارد الطاقة والمواد الاولية من جهة كما نشهد من جهة اخرى فكرة استثمار واستغلال هذه الطاقات والثروات من طرف ثلة من المنتجين لا تزال — على ما يظهر — تحت تاثير حقب ولت وعهود

ادبرت كانت لها خلالها سيطرة عسكرية يذكيها مركب سمو واستشعار بالسؤدد والكمال الذاتيين ، وهكذا يتجلى القانون الدولى نفسه وكأنه معلول لبواعث صارمة تغذيها وجهات عقدية اوجدت لنفسها مبررات طوال اجيال فى لبوس حضارة معاصرة طريفة .

وقد تولد عن هذا المشعر الاحتكارى ما ادى الى خلل فى الكيان البشرى اسفر عن ازمات مزمنة تحركت لها كوامن العالم الحديث فى اضطرابات متواليـة .

وما دامت مظاهر عدم التساوق هذه متحكمة فان اى حل للازمات التى تواجهها الانسانية سيظل مجرد دواء موقوت يهدىء الالم ولا يستاصله .

اننا لم نحاول فى عرضنا هذا اضفاء طابع شرقى باسم الاسلام على عالم مغاير للعالم العربى مع ان اوربا حاولت بالعكس (تغريب) الشعوب المستضعفة التى جعلها القدر تحت سيطرتها وذلك باسم فكر دينى وتقاليد هيلينية يهودية مسيحية وقد عبر زميلنا (مارسيل بوازار) عن هذه الحقيقة (1) مؤكدا « ان واضعى قانون الشعوب حاولوا باسم المسيحية فرض قواعد لتسيير الحروب اواخر العصور الوسطى وتعللوا بمثل هذه المراسيم بعد ذلك الى القرن التاسع عشر » .

ان العالم المعاصر يسعى لحل مشاكله الدولية فى نطاق معلمة متحجرة جامدة يبقى فيها كل تجديد او تعديل مشروطا بتغذية مصالح توصف بانها مكتسبة دون أية رعاية للخلق الدولى .

وهكذا يتعارض المسار الغربى المطبوع بخاتم عقدى مع انطلاقة عارمة لدى شعوب استرقها الاستعمار — نحو التحرر والتطور ضمن تعادلية حق مجردة من كل عوامل العنصرية والمؤثرات الدينية .

فاذا كنا نحن المسلمين الذين نمثل ربع الانسانية ننطلق حتما من عقديات فاننا متمسكون بقيم معنوية وبحضارة متغلغلة فى اعماق التاريخ تطبعها روح انسانية عالمية لا مجال فيها للتنطعات او النزعات من اى صنف او اى طراز ، ان التخلف والعنف كوسيلة قمعية وما يستتبعان من قصاص وثار كل ذلك يشكل عوامل اضطراب تقابلها قرارات وضعتها هيأة الامم المتحدة لمواجهة اللجوء الى القوة والعدوان غير ان تطبيقها يتعثر فى « روتين » او ربما فى تقنينات شاذة تعرقل السير الطبيعى لما صدقت عليه الامم والشعوب من مراسيم واجراءات .

ان مفهوم الازمة ومدلولها ما زالا لم يتحررا من تعقيدات كانت وليدة روح استعمارية جعلت من العنصر الخلقى والروحى جزءا متضائلا يذوب فى خضم بنيوى كلاسيكى يشكل التمليل الوحيد الذى فرض نفسه ولا يزال ، ذلك أن المحتوى الاقتصادى يشكل القوام الجوهرى لا الاقوى فقط ولكن الفريد فى هيكل مادى تبرز فيه دواعى الخلل المالى او الفلاحى او الصناعى او الاستهلاكى بما تثيره من هزات وازمات واضطرابات وانفصامات فى التوازن بين الانتاج والاستهلاك وانهيارات فى مضايق المعاملات وافلاسات وبطالات وتخفيضات فى العملات وفيوضات انتاجية مما لا يترك مجالا للعامل الخلقى الذى يكمن فيه احيانا الحل الامثل لكثير من المشاكل والازمات .

فالى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن الازمات — التى لم يراع فيها سوى جانبها الاقتصادى — سوى ازمات نقص فى الانتاج الفلاحى نتج عنه خلل فى الاستهلاك الصناعى بسبب انخفاض القوة الشرائية لدى الفلاح وكثيرا ما تنتج المجاعات — التى هى ابرز مظهر فى الازمات — عن خصاص فى المحاصيل الزراعية وفى هذا الدور والتسلسل يتدخل ارتفاع الاسعار لخلق اضطرابات زراعية وتوقف للانتاج الصناعى بل ان الفائض الصناعى النسبى تنطلق منه احيانا الآلية المحتومة التى يتحرك منها دولاب الازمات

وفى كل هذا المسار يظل العنصر المادى هو المحرك الوحيد فى نظر معظم رجالات التخطيط فى العالم المعاصر وقد اصبح التسلح والتسارع الى اختراع اشد الاسلحة فتكا عاملا دعم المعاملات المادية وضاعفها فالقنبلة النطرونية تعكس سياسة جديدة من الصمود تصبح الانسانية فيها رهانا تتجاذبه كتلتان تتفاعل فيهما عوامل الخراب والدمار .

اين المفاعل الروحى والمعنوى فى كل ذلك ؟ ان عامل الكبت الخلقى انهار الى غير قرار .

والعالم الثالث الذى تتضخم فى هذه الحال اعداده ينتظر فى قلق وحيرة ورعب احيانا تفجرات ستكون البشرية بكاملها ضحيتها الاولى وكأنى بالانسان تحركه وتذكيه غريزية وحشية ينفعل فيها الحس الخلقى ضمن سلم براكماتيكى متحرك تتجرد فيه القيم من جوهرها الانسانى .

وهذا الانهيار للمقومات الخلقية فى مواجهة تسلسل الازمات يؤدى حتما الى خلل فى التوازن الانسانى وفراغ فى مجرى التأريخ ومثالياته المتصاعدة

ومع ذلك فقد يكفى احيانا عامل معنوى او خلقى ضئيل لسد فراغ او تقويم اود او معالجة مشكل والواقع ان بعض اصناف الانسانية فى عالمنا الحديث لم تعد تستعمل لغة واحدة فى التخاطب والتفاهم بل ان البعض بدأ يتبادل الاتهامات والمنابزات فى سوء نية متبادلة ليس من شانها ان تساعد على تحقيق التقارب لحل المشاكل ، اننا لا نود ان نوصم بالعمل على اقحام عنصر دينى فى بلورة مبادىء او مسلمات لا يعنينا منها الا مظهرها المعنوى والخلقى الذى هو تراث الانسانية بكاملها غير اننا نتجه قسرا فى محاولة تعريف وجهة نظر العالم الثالث المتبلور فى المجموعة الافريقية الاسيوية التى يسودها على ما يلوح الطابع الاسلامى .

لقد اوضح صديقنا بوازار (2) « ان الموضوعية التاريخية بل مجرد العدالة تحذو الى التذكير بأن الحضارة التى تبنت ثقافة البحر المتوسط طوال سبعة قرون من العصور الوسطى — كانت اسلامية » ولا يوجد ضمن هذه النظرية الاسلامية ميز بين ما هو محتوم قانونيا وبين الواجب الخلقى .

ثم اضاف زميلنا بوازار (3) « ان الاسلام يمتلك عناصر جواب عن التساؤلات الاساسية فى العصور الحديثة .. وبذلك اقامت الشعوب الاسلامية اثر تخلصها من الاستعمار مرآة قد تنعكس عليها صورة متخيلة للمجتمع الاسلامى فى المستقبل » .

وقد لاحظ (بوازار) فى مكان آخر « ان الفلسفة الغربية وكذلك تاريخ اوربا منذ القرن التاسع عشر خاصة قد ساهما فى وسم النظام القانونى الدولى بسمة ايجابية بارزة ترفض كل اعتبار خلقى او روحى وبالرغم عن حربين عالميتين لم يعرف ذلك النظام كيف يتلافاهما وبالرغم كذلك عن محاولة حديثة اكثر نسقا لتنظيم مجتمع الدول عن طريق هيئة الامم المتحدة وفروعها المتخصصة ، فان القانون الدولى ما زال على ما كان عليه لم يطرأ عليه اى تغيير فى روحه » .

وهكذا يمكن القول بأن الانسانية امست موضع تجاذب بين معطيات متناقضة تنبثق اما عن التزامية متحجرة او عن منطلق مخلص نزيه ينتجع بسروز الحقيقة ومن حسن الحظ ان طائفة من النخبة الفكرية المعاصرة — وهى متجهة نحو التحرر والانعتاق — لم تستطع مؤثرات المادية ومغرياتها امتصاصها ولا صرفها عما هى بصدد البحث عنه فهى تجهد النفس منتقية بين ثنايا كتلة غير متساوقة الوجهة الروحية التى ترى انها المنطقية او الحركة السياسية الاجتماعية الاوفق والاكثر انطباقا على مبتغاها فلا الموروثات المجردة تعمى بصرها ولا العقلانيات او النفسانيات او التقليديات الواهية تستخفها فتكرها الخلاق المبدع فكر حر قد اكتمل توازنه بتمهدات رصينة تفجرت عن معطيات العلم الحديث الذى بدأ ينطلق فى يسر وفعالية بفضل جوهره المادى والروحى المزدوج . نعم ان العلم نفسه فى تجاربه الانسانية الواعية بدأ يحدونا الى البحث عن النسق المساوق بين عناصر كياننا فى تلك الازدواجية .

ان مستوى الحياة ومسارها فى القرن العشرين يضعان مشكلا انسانيا يهم عالمنا الافريقى الاسيوى بالدرجة الاولى . فهذه الالتزامية التى كاد تسلسل الاحداث فى مخبرها الاستعمارى يفرضها علينا يجب أن نخضعها لاختيارات منطقية اى انسانية تقدر فيها قيمة كل مبدأ تبعا لمدى ما ينطوى عليه من مرونة وصلاحية لمسايرة روح العصر فى هيكلها المزاوج بين العقل والعلم والمادة والروح .

ان تكامل العنصرين والتوازن بين معطياتهما التى كان البعض يرى تناقضها هو سر الحل الفاصل والدواء الناجع لكثير من المشاكل التى تتعقد بسبب انحيازها عن البساطة الفطرية الكامنة فى توازن مقومات الانسان فلا مادة بدون روح ولا روح بدون مادة ولا حل منطقيا انسانيا بدونهما معا .

وفكرة التكامل هذه قد ادرجها فى مسلمات الفيزياء الحديثة العالمان (هيزنبيرغ) W. Heisenberg و (نييلزبوهر) Niels Bohr جاعلين منها احد المفاتيح الرئيسية التى تساعد الانسان على ادراك مغزى ما كان يراه متناقضا بل مستحيل الادراك ! فالرياضيات الماورائية métamathématique يتجه الى بلورتها علم الغد الذى سيكشف حقلا مغايرا للحقل المعهود للعمليات الذهنية كما سيرفع النقاب عن الابعاد الجديدة المرتكزة على فكرة تبناها المؤتمر العالمى للفيزياء الذى انعقد فى بيكين عام 1966 لدراسة مختلف اشكال الطاقة ما جل منها او دق مبرهنا عن وجود بنية سيكولوجية عليا .

ففى ظل هذه المعطيات العلمية امسى الانسان يؤمن بأن الانكارية الاستئصالية nihilisme لم تعد خاصية الفكر الحر وان التقليدية اللامنطقية يجب تنحيتها كأسلوب غير انسانى من شانه ان يشوه اختيارات الفكر ! ان قوة الانسان كامنة فى قدرته على

الاختيار وفى الشعور بحريته فى هذا الاختيار ولكن فى نطاق توازنه الروحى المادى كانسان !

ذلك ان الحكمة المثلى تكمن فى هذا الاختيار الذى يتجلى فى بساطته من قبيل السهل الممتنع ! .

ان الخلق العالى ليس لقيمه المثلى حدود مصطنعة ولا يمكن لاى كان ان يحد من مداه الانسانى الذى هو سر مثاليته .

وهذه الوحدة الاصيلة بين الحضارات والتزاوج العريق بين الاختيارات الحضارية هو الذى الهم بعض زعماء الانسانية امثال محمد اقبال !

ان اى تطور مهما يكن سيظل مشروطا بادىء ذى بدء بالتفتح التلقائى للكائن البشرى فى وسط ملائم ومحيط لم تعكره ديماغوجية ولا تزمت مذهبى ! فالامة التى يتكافل مواطنوها تشكل الحقل الاصلح لاى اشعاع ! والامم التى تتفاعل اخويا فى ظل (خلقية انسانية عليا) هى التى سيقدر لها ان تعيش وان تسود وان تفرض على العالم ذلك الاخاء الانسانى الحق الذى يفتقده والذى سيشكل العامل الاقوى والاوحد لتمهيد الطريق من اجل استئصال جذور الازمات والاسلام الذى يطبع اتجاهنا قد عرف — كما يقول (لوى كاردى)Louis Gardet كيف ينفلت من مغربات الكبرياء التى انقادت لها الثقافة الغربية المعاصرة كما عرف كيف يتطور ضمن شعور عارم بالحقيقة بعيد عن كل (سوبرمانية) Supra-humanité يحفظ للانسان توازنه فى اطار ابعاده الحقيقية دون تحمس مخل ولا انحطاط مسف ! اذا كان عالمنا باجزائه المتنافرة لم يتعرف بعد على طريقة تفسح له مجال التفاهم فما ذلك الا لان كل جانب يجهل كل شىء عن الجانب الآخر فهذا الفراغ الخطير هو الذى سماه (لوشاطولييى) le châtelier بقلق الفراغات malaise des lacunes والذى يقض مضاجع بعض اولئك الذين يسهرون على العلاقات الدولية مع العالم الثالث او العالم العربى او العالم الاسلامى وهم لا يعزفون عهد هارون الرشيد الا من خلال (الف ليلة وليلة) تلك الظاهرة المرة هى سر كثير من المجاذبات التى تعانيها (الانسية المتوسطية) l'humanisme méditerranéen التى سبق ان وحدت بين الاسلام والمسيحية ودعمتها العقلانية الهيلينية كما فهمها سلفنا من قادة الفكر فى البحر الابيض المتوسط امثال ابن رشد الذين كيفوا عقلية الانسان فى العالم المتحضر انطلاقا من توازنه ووحدة جوهره وازدواجية تواميه : العقل والروح ..

هوامش البحث

1) فى كتابه (انتية الاسلام — المقدمة) .

2) نقلا من وولف (J. Wolf) فى بحث له بعنوان (تراث حضارة سادت الانسانية) (جريدة لوموند — عدد ثامن وتاسع يونيه 1969) .

3) فى كتابه (الاسلام والخلق الدولى م . 1 ص 22)
وهو الكتاب الذى طبع باسم (الانسية الاسلامية) وكان قد احاله علينا وهو فى ملازمه الاولى لابداء النظر قبل الطبع فشكرا له .